المكونات المضمونية والبنائية لتأليف الطبقات عند الشيعة في العصر العباسي - دراسة تحليلية

سمية مؤمنة
طالبة الدكتوراه في قسم تاريخ الإسلام، جامعة أصفهان، إيران
somayehmomeneh@yahoo.com
الدكتور محمد علي چلونگر
أستاذ في قسم تاريخ الإسلام، جامعة أصفهان، إيران
ltr.ui.ac.ir@m.chelongar
الدكتور مصطفى پيرمراديان
أستاذ مشارك في قسم تاريخ الإسلام، جامعة أصفهان، إيران
ltr.ui.ac.ir@m.pirmoradian

The content and structural components of layer composition for Shiites in the Abbasid era - An analytical study

Somayeh Momeneh
PhD Student, Department of Islamic History , University of Isfahan , Iran
Dr. Muhammad Ali Chelonger
Professor , Department of Islamic History , University of Isfahan , Iran
Dr. Mustafa Piramradian
Associate Professor, Department of Islamic History , University of Isfahan , Iran

الملخص:-

في حقل كتابة التاريخ الإسلامي، بدأ تأليف الطبقات لدى الشيعة بمنزلة وسيلة لمعرفة الأبعاد الشخصية للأعلام المترجم لهم ومدى وثوق الصحابة والتابعين ورواة الحديث والعلوم والحرف المختلفة في القرن الثاني في العصر العباسي ونما وازدهر في القرنين الخامس والسادسللهجرة. لعل الشيء الملفت للانتباه هو أنه في هذه الحقبة التاريخية، ألف الشيعة آثارا عديدة تحظى بأهمية فائقة في علم الطبقات. من هذا المنطلق، تسعى هذه الدراسة الحالية من خلال المنهج التحليلي ـ الوثائقي، أن تسلط الضوء على كتب طبقات الشيعة في العصر العباسي لتكشف الستار عن مكوناتها المضمونية والبنائية. تكمن أهمية قراءة هذه الكتب بالدرجة اللأولى في أنها تتيح لنا معرفة كاملة للأوضاع السياسية والاجتماعية للعصر العباسي، والوقوف على مضامين مؤلفات الشيعة وآثارهم، ووجهات نظر الكتاب وطريقة تأليفهم. مما أظهرت هذه الدراسة أن الشيعة كانوا يصبون اهتماما بالغا على المكانة المرموقة للأئمة المعصومين عليهم السلام وأصحابهم ورواتهم، بذلك خصصوا النصيب الأوفر من مؤلفاتهم للحديث عنهم. وهذا من السمات المهمة لكتب طبقات الشيعة، لأن ضرورة تسجيل السيرة النبوية ومعرفتها جعل أهل السنة لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام التيار الشيعي، فقاموا بتعريف الصحابة وذكر أنسابهم ورواة السيرة كحلقة وصل لمعرفة الأحاديث النبوية الشريفة.

الكلمات المفتاحية: تأليف الطبقات، الشيعة، العصر العباسي.

Abstract:-

In the field of writing Islamic history, the composition of the layers began for the Shiites as a way to know the personal dates of the interpreters of them and the extent of the trustworthiness of the Companions and followers and the narrators of hadith and various sciences and crafts in the second century in the Abbasid era and grew and flourished in the fifth and sixth centuries of migration. Perhaps the remarkable thing is that in this historical epoch, the Shiites composed many monuments of great importance in stratigraphy. From this point of view, this current study seeks, through the analytical-documentary approach, to shed light on the books of the Shiite classes in the Abbasid era to reveal their content and structural components. The importance of reading these books lies primarily in that they provide us with a complete knowledge of the political and social conditions of the Abbasid era, and to identify the contents and effects of Shiite literature, the book's viewpoints and the method of their composition. What this study showed that the Shiites were paying great attention to the prestige of the infallible imams (peace be upon them), their companions and their narrators, thus they allocated the largest share of their books to talk about them. This is one of the important features of the books of the Shi'a classes, because the necessity of recording and knowing the Prophet's biography made the Sunnis not stand idly by in front of the Shi'ite movement, so they defined the Companions and mentioned their lineages and the narrators of the biography as a link to know the honorable prophetic hadiths.

Key words: the composition of the layers, the Shiites, the Abbasid era.

المقدمة:ـ

لقد كانت الخلافة العباسية (١٣٢ ـ ٦٥٦ق) هي الخلافة العربية الإسلامية الثالثة التي قامت على أكتافها بعد البعثة النبوية في القرن الثاني للهجرة، وقد سمّيت باسم حاكميها بني عباس وأسّسها رجال من سلالة العباس بن عبد المطّلب عم الرسول محمد ﷺ. فمنذ بدء الدولة العباسية حتى نهاية الغيبة الصغرى في سنة ٣٢٩ للهجرة، تمتع المجتمع الشيعي وعقائده وآراؤه بحرية العمل النسبي والتشتت السكاني أكثر من قبل؛ وكان ذلك في ضوء وحدة الهاشميين (العباسيين والعلويين) في العصر الأموي، وانتهاء الدولة الأموية، وظهور دعوة العباسيين مع شعار الرضا من آل محمد عليهم السلام، والجهود الجهيدة للإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام لتربية ثلة صالحة من تلاميذهما في العلوم المختلفة، وكذلك مهاجرة جماعة من السادات والعلويين إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي. والحقيقة التي لا مراء فيها أن في عصر بعض الخلفاء العباسيين نحو المهدي، والأمين، والمأمون والمعتصم والواثق والمنتصر، استمتع الشيعة بحرية العمل الأكثر، حيث لا نعدو الصواب إذا قلنا إن التعسفات والضغوطات السابقة على الشيعة انخفضت بشكل بارز في عصر هؤلاء الخلفاءالسالفين ذكرهم.

تزامنا مع استيلاء العباسيين على أزمّة الحكم، تطورت كتابة التاريخ تطورا ملحوظا؛ ذلك لأنه تماشيا مع تكامل الفكرة والمنهج والأسلوب في كتابة السيرة، رغب المسلمون في الكتابة في المجالات المعرفية الشتى، فخطت كتابة التاريخ الإسلامي خطوات هامة نحوالتطور والتكامل. تكمن أهمية كتابة التاريخ لدى الشيعة في أن بعض الكتّاب والمؤرخين قاموا بفهرسة الأعمال التاريخية للشيعة من صدر الإسلام حتى أيام حياتهم.

يبدو للمتأمل أن تأليف الطبقات من أبرز مناهج فهرسة مؤلفات الشيعة وتصنيفها.بذلك، ففي هذه الدراسة المتواضعة، نسعى الإجابة عن سؤال جوهري،هو: ما الميزات المضمونية والبنائية لكتب طبقات الشيعة؟ إن الإجابة عن هذا السؤال الرئيسي تزيح الستار عن مكانة كتب طبقات الشيعة ومدى الثقة بها. لا يفوتنا هنا أن معرفة الرجال والرواة من الضروريات المهمة في مجال الدراسات التاريخية، مما سيتحقق من خلال تسليط الضوء على كتب الطبقات.

مهما يكن من أمر، ففي القرون الأخيرة، تم تأليف كتب وتأليفات عديدة بالفارسية

والإنجليزية والعربية في مجال دراسة الأنواع المختلفة لكتابة التاريخ عند الشيعة؛ فمنها ما يلي:

كتاب "التاريخ والمؤرخون" لعبد العزيز سالم: لقد خصص المؤلف الفصل الثالث تحت عنوان "تطور الكتابة التاريخية في العصر الإسلامي" إلى موضوعات، مثل: كيفية كتابة التاريخ عند المسلمين، نحوُ الطبقات وما شاكل ذلك.

وكذلك كتاب "تاريخ الأدب العربي" لكارل بروكلمان: لقد تطرق الفصل الرابع للكتاب إلى انتهاء الدولة الأموية وتربع العباسيين على العرش في سنة ١٣٢ للهجرة حتى سقوط الدولة العباسية بعد الغزو المغولي على بغداد في سنة ٦٥٦ للهجرة.

حين نلقي نظرة فاحصة على هذه المؤلفات،نرى أن جلّ هذه الآثار قد تناولت الطبقات وكيفية تأليفها بشكل كلي لا جزئي ولم يتم الفصل بين كتب طبقات الشيعة وأهل السنة إلا في مقالة "پيشينه طبقات‌نگاري در ميان مسلمانان" (خلفية تأليف الطبقات لدى المسلمين) لنعمت الله صفري فروشاني. فقد تم في هذه المقالة، الفصل بين كتب طبقات الشيعة وأهل السنة وذكر أمثلة من كتب الطبقات على ترتيب أهمية الكاتب ومذهبه. ومن الميزات المهمة لهذه المقالة هي أنها اعتبرت كتابة الطبقات علما مرتبطا بعلم الرجال والحديث واهتمت بأبعادها السياسية والاجتماعية اهتماما قليلا.

مهما يكن من أمر، فتسعى هذه الدراسة الراهنة إلى الإجابة عن السؤالين المهمين:

- في أي مجالات تم تأليف كتب طبقات الشيعة في العصر العباسي؟
- ما المكونات المضمونية والبنائية لكتب طبقات الشيعة؟

المكونات المضمونية:

نظرا إلى تأكيد الآيات القرآنية والرسول ﷺ وأئمة الشيعة في تكريم مكانة العلم وتشجيع الآخرين على التعلم وطلب العلم في العلوم المختلفة النظرية والطبيعية والدينية، فقام الشيعة منذ قديم الزمن بتأليف آثار متعددة في مجالات شتى. بذلك منذ بدء تأليف طبقات الشيعة في القرن الثالث للهجرة، أعير اهتمام بالغ للموضوعات العلمية. فألف دعبل الخزاعي أول كتاب طبقات الشيعة في مجال العلوم الأدبية تحت عنوان "طبقات الشعراء"، كما جرى أبو هفان البصري على طريق دعبل، فألف كتابا مماثلا في هذا المجال.

في هذا القرن، ألف ابن داوود الشاذكوني (م ٢٧٤ق)، من أعلام رجال أصفهان، كتابا معنونا بـ"تاريخ في طبقات أهل العلم". وأما في القرن الرابع للهجرة وتزامنا مع اتساع مذهب التشيع واستيلاء آل بويه على مقاليد الحكم، قام رجال الشيعة بالنشاطات الفكرية والثقافية الكثيرة، فألفوا كتبا عديدة في مجال علوم الحديث. بذلك نرى أن في هذا القرن، ألف القاضي الجعابي كتاب "الشيعة من أصحاب الحديث وطبقاتهم". استمر الاهتمام البالغ بالكتابة في مجال العلوم الأدبية. فألف عبد العزيز بن يحيي الجلودي كتاب "طبقات العرب والشعراء". أما في القرن السادس فألف عمارة بن علي بن زيدان اليمني كتاب "طبقات الشعراء". أما على وشك انهيار الخلافة العباسية، فألف أبو العلاء الهمذاني كتاب "طبقات القراء". فهذا الكتاب كان أول كتاب قام بتصنيف قراء الشيعة في مجال علم القراءة. كما نرى أن الشيعة في القرن الرابع للهجرة اهتم اهتماما بالغا بالأنساب وتصنيف الطبقات المختلفة الاجتماعية؛ فمثلا ألف عبد العزيز بن يحيي الجلودي كتاب "طبقات العرب والشعراء" وألف القاضي الجعابي كتاب "الموالي والأشراف وطبقاتهم". وأما في القرن السادس للهجرة فأعار أبو علي محمد بن أسعد الجواني الحسيني اهتماما بالغا لتصنيف النسابين، فألف أول كتاب في هذا المجال تحت عنوان "طبقات النسابين".

ويبدو أن الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا من طبقات الشيعة في مجال المضامين العلمية وتصنيف علماء الشيعة هو كتاب "نزهة الأنباء في طبقات الأدباء" لأبن الأنباري (م ٥٧٧ق). يقدم هذا الكتاب للقارئ فهرسا جامعا من علماء علم النحو بدءا بالإمام علي عليه السلام في القرن الأول ونهاية بالنحويين في القرن السادس للهجرة. فها هو يؤكد كسائر المؤرخين وأهل اللغة على أن أول واضع لعلم النحو هو علي بن أبي طالب عليه السلام كرّم الله مثواه. زد على ذلك، أن ابن الأنباري لا يكتفي بذكر أسماء علماء الشيعة في النحو، بل يذكر أسماء علماء النحو في الملل والمذاهب الأخرى. فعلي سبيل المثال، يشير إلى أبي عمرو إسحق بن مرار الشيباني (م ٢٠٦ق) الذي كان على مذهب الاعتزال (ابن الأنباري، ١٤٠٥ق: ٧٧)؛ أو إلى أبي منصور الجواليقي (م ٥٤٠ق) الذي كان على مذهب الحنابلة (المصدر نفسه، ٢٩٣)، أو إلى عبد الله بن المعتز (م ٢٩٦ق) الخليفة العباسي الذي كان حنفي المسلك (المصدر نفسه، ١٧٦) أو إلى أبي علي الفارسي (م ٣٧٧ق) الذي كان عالما فارسي الأصل (المصدر نفسه، ٢٣٢).

ومما يروقنا من منهج ابن الأنباري حرصه الشديد على سبب تفوق العلماء في علم النحو وذكر أسماء رواتهم. زد على ذلك، من السمات البارزة الأخرى لمنهجه أنه قد وظف الآيات القرآنية في طيات كتابه بشكل باهر (المصدر نفسه: ١٧). فعلى سبيل المثال، قد استمتع بالتعابير القرآنية الكريمة وبلاغتها في بدء كلامه قائلا: ((الحمد لله خالق الانسان، الذي علمه البيان...))، مما يشير كل إشارة إلى الآيات الأولى لسورة العلق المباركة. مضافا إلى ذلك، أن بعض أصحاب التراجم والطبقات قد استفادوا من السجع في كتبهم مما زاد على بلاغة كلامهم وروعته وروائه. فنلاحظ بكل وضوح هذه السمة في كتاب ابن الأنباري، يقول مثلا: ((اعلم أيدك الله بالتوفيق وأرشدك إلى سواء الطريق)) (المصدر نفسه، ١٨). كذلك يرى بشكل بارز في هذا الكتاب، توظيف الأبيات الشعرية التي نظمها الرجال أنفسهم في طيات تراجمهم لإظهار مقدرتهم الشعرية (المصدر نفسه، ٤١، ٤٤ـ ٤٥، ٥٧، ٧٢، و...).

١ـ معرفة الصحابة

قمين بالملاحظة أن الشيعة لم يكتفوا بكتابة سيرة الرسول ﷺ وأئمة الشيعة فحسب، وإنما قاموا بتعريف صحابتهم ورواتهم أيضا. فيعد كتاب "تسمية من شهد مع أمير المؤمنين الجمل والصفين والنهروان من الأصحاب" لعبيد الله بن أبي الرافع، كاتب الإمام علي عليه السلام، أقدم ما وصل إلينا من كتب التراجم، إلا أنه اندثر على مرور الزمن ووصلت إليه يد النسيان، حيث لم يبق منه إلا ما تناثر هناك وهنا في طيات الكتب الأخرى.

مهما يكن من شيء، فيعد هذا الكتاب أول أثر تم تأليفه في مجال التراجم والرجال في العالم الإسلامي ودوّن على نظام الطبقات دون أن يحمل هذا الاسم في عنوانه؛ في الواقع إن ابن أبي الرافع كان أول من فصل بين السيرة النبوية وعلم الرجال، فأضفى على الأخير صبغة مستقلة واعتبر الحضور في المعارك وساحات الحرب فنا سياسيا مستقلا قام به في كتابه القيم. هذا بينما أن أشياء كهذه كانت تذكر قبل ذا في الكتب والأحاديث المتعلقة بالسيرة.

بذلك فمن المستحسن أن نعتبر كتاب "تسمية..." من أقدم كتب الطبقات والتراجم الجماعية. مهما يكن من أمر، فبعد كتاب "تسمية"، جاءت مرحلة كتابة وتدوين الطبقات أو مجموعات التراجم الضخمة، ومنها كتاب "طبقات الشعراء" لدعبل بن علي الخزاعي (١٤٨ -

٢٤٦ق)؛ فهو يعد أول أثر قام بتأليفه علماء الشيعة في مجال الطبقات، يتناول شرح أحوال الشعراء السابقين حتى عصر المؤلف. للأسف قد ضاع الكتاب ولا وجود له اليوم. لقد كان دعبل من أعاظم الشعراء في العصر العباسي الأول. لقد فتحت عيناه على الدنيا في زمن خلافة المنصور العباسي ونشأ وترعرع في الكوفة ثم قصد بغداد وأقام فيها لمدة. كان دعبل من أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام والإمام الرضا عليه السلام وكذلك أدرك محضر الإمام الجواد عليه السلام.

في كتب طبقات الشيعة، يطلق على أصحاب الأئمة عليهم السلام وأتباعهم، عنوان الصحابة. زد على ذلك، أن جماعة من الصحابة الذين وقفوا إلى جانب الإمام علي عليه السلام ودافعوا عن حقه في الخلافة بعد الرسول، استقطب اهتمام أصحاب التراجم، حيث نراهم قد اعتنوا بهذه الجماعة من الصحابة عناية فائقة. نرى أن البرقي في أول كل فصل لكتابه يذكر أولا أسماء رواة كانوا من أصحاب الإمام السابق ثم أدركوا الإمام الآتي وبالتالي يذكر أسماء رواة الإمام الأخير. مضافا إلى ذلك، نلاحظ أن البرقي يذكر أولا أسماء رواة الحديث على الترتيب التاريخي من عصر النبي صلى الله عليه وآله حتى عصر الإمام الحسن العسكري عليه السلام ثم يذكر أسماء النساء المحدثات على هذا الترتيب (البرقي، ١٤٣٣ق: ٣٧٦ - ٣٨٥). ها هو نرى شيخ الطائفة يجري على طريقة البرقي، فيرتب طبقات الرواة من عصر الرسول صلى الله عليه وآله حتى عصر الإمام المهدي عليه السلام ثم يخصص بابا مستقلا للرواة الذين لم يرووا عن أي إمام معصوم بشكل مباشر وهو يتضمن أيضا الرواة المتأخرين عن عصر الأئمة وكذلك الرواة الذين كانوا يعيشون في عصر الأئمة ولكن لم يرووا رواية عنهم. إضافة إلى ذلك، أن الطوسي قد خصص لكل من الأئمة المعصومين بابا مستقلا ثم يقسمهإلى أبواب عديدة على ترتيب الحروف الهجائية. أما بالنسبة إلى ترتيب الأسماء فقد روعي الحرف الأول فقط دون الحرف الثاني والثالث، وفي كثير من الأحيان قد بدأ كل باب بأشهر أشخاصه. إن النصوص المنتمية إلى ابن أبي طي يتضمن تاريخ حياة كل شخص والرواي والمروي عنه وما شاكل ذلك معذكر المصادر والمراجع التي اعتمد عليها.

والحقيق بالملاحظة هنا ايضا أنه من الميزات المشتركة بين أغلب هذه الآثار هي أنها قد عنيت بتجليل وتبجيل شخصية الإمام علي عليه السلام عناية فائقة. فعلى سبيل المثال، يؤكد ابن الأنباري في أول كتابه على أن الإمام علي عليه السلام وضع علم النحو أو يخصص له لقب أمير المؤمنين دون الخلفاء الآخرين (ابن الأنباري، ١٤٠٥ق: ١٧ - ١٨).

٢ـ معرفة الرجال:

تعود أهمية معرفة الراوي إلى دور علم الرجال وأهميته بين الشيعة. فكان من أهداف وضع هذا العلم هو حفظ وضبط أحاديث الرسول ﷺ وأئمة الشيعة عليهم السلام وصيانتها وسلامتها من التحريف والتصحيف. ومن اللافت أن هذا العلم استمد كثيرا من نظام تدوين تاريخ الطبقات؛ ومرجع ذلك أنه إذا قمنا بتصنيف الرواة وتحديد ثقاتهم فيسهل طريق الوصول إلى الغاية المنشودة وهي معرفة الراوي؛ من جانب آخر، إن قضية الغيبة والحاجة إلى تعريف أصحاب الأئمة عليهم السلام مما زاد من أهمية معرفة الراوي أكثر من قبل. لإثبات دعوانا، نشير إلى كتابين في هذا المجال: فالأول كتاب "الرجال" أو "طبقات الرجال" لأبي جعفر أحمد بن محمد بن خالد بن عبد الرحمن البرقي (م ٢٧٤ق). ففي هذا الكتاب، تم فهرسة رواة الأحاديث على أساس طبقة ينتمون إليها، بعبارة أدق، تم فهرستهم على أساس فترة زمنية كانوا يعيشون فيها وإمام كانوا يروون عنه (البرقي، ١٤٣٣ق، ٨). لقد جاء في هذا الكتاب أصحاب الرسول ﷺ والإمام علي عليه السلام على التوالي ثم تم تقسيمهم إلى ثلاث طبقات: الأصفياء والأولياء، وشرطة الخميس، وخواص الأصحاب ثم جاء أصحاب باقي الأئمة حتى أصحاب الإمام العسكري عليه السلام ثم جاءت أسماء النساء المحدثات اللواتي روين الحديث عن الرسول والأئمة عليهم السلام. وفي نهاية الكتاب، سرد أسماء الذين وقفوا في وجه أبي بكر وألقوا خطاباتهم ضد اغتصاب الخلافة. ففي أول كل فصل، جاءت أسماء رواة كانوا من أصحاب الإمام الماضي ولكن أدركوا الإمام الآتي ثم ذكرت أسماء أصحاب الإمام الأخير؛ وأما الكتاب الثاني فهو كتاب "الرجال" لمحمد بن الحسن بن علي بن الحسن (م ٤٦٠ق)، المشهور بالشيخ الطوسي أو شيخ الطائفة. فهو من الكتب الرئيسة لرجال الشيعة، مما تم تأليفه بين سنوات ٤٢٣ حتى ٤٣٦ للهجرة (الطوسي، ١٣٨٥ق، ٥٢٨؛ ١٤١٥ق، ٥٩٦). ففي هذا الكتاب، قد أشار الكاتب إلى أصحاب الرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام على الترتيب الزمني وذكر أسماء الرواة من الصحابة ورواة أمير المؤمنين عليه السلام ورواة الإمام حسن عليه السلام و... على الترتيب المعجمي تيسيرا على الباحثين. زد على ذلك، أن في نهاية الكتاب، سرد أسماء الرواة الذين لم يرووا عن أي إمام معصوم.

مهما يكن من شيء، فهذا الكتاب قد رتب في ١٣ بابا وذكر فيه أسماء ٦٤٢٩ راويا. ومما تميز به هؤلاء الرواة هو أنهم رووا عن المعصومين. بذلك نرى بوضوح أن المؤلف قد

جمع في هذا الكتاب أسماء رواة أهل السنة والشيعة، ورواة الإمامية والفرق الشيعية الأخرى، والرواة المؤمنين والمنافقين والثقة وغير الثقة معا (العاملي، ١٤١١ق، ج ١، ٢٩). لا يفوتنا أن رجال الطوسي من جملة آثار لا يحمل مصطلح الطبقات في عنوانه ولكن دوّن على نظام كتب الطبقات.

٣ـ معرفة كبار الرجال:

في هذا الصدد، يمكن أن نشير إلى كتب مختلفة وضعها علماء الشيعة، مثل "طبقات الشيعة" لسعد بن عبد الله الأشعري، و"طبقات الشيعة" لعبد العزيز بن إسحق، و"الطبقات"لابن دوُل القمي، مما ألقيت ـ للأسف ـ في زوايا النسيان وحتى لم يصل إلينا شيء منها ـ قدر علمنا ـ في طيات الكتب الأخرى.

ومما يسترعي الانتباه أن أحسن كتاب تم تأليفه في هذا المجال هو كتاب "طبقات الشيعة" أو "الحاوي في رجال الشيعة الإمامية" ليحيى بن حميد بن ظافر الطائي المعروف بابن أبي طي الحلبي (م ٦٣٠ق)، المؤرخ الشيعي الشهير الذي كان من أهالي حلب في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة. هناك شواهد ووثائق كثيرة على أن حشدا وفيرا من أهالي مدينة حلب حتى استيلاء الأيوبيين على الحكم، كانوا على مذهب الشيعة الإمامية ولكن بعد انهيار دولة الحمدانيين، تقلص عددهم يوما بعد يوم فتحول معظم سكانهاإلى المذاهب الأخرى حتى قد بقيت اليوم فئة قليلة من الشيعة في هذه المدينة وبعض قراها المجاورة. لقد انتشر التشيع وارتفع شأنه في حلب في عهد الحمدانيين وعلى رأسهم سيف الدولة الحمداني الذين كانوا على مذهب الشيعة دعما للفاطميين (المصدر نفسه، ٣٧ ـ ٣٨).

مهما يكن من شيء، فبعد أن قضى الأيوبيون على الشيعة والتشيع وتعرض الشيعة للتعسف والاضطهاد النوري والأيوبي والمملوكي، طوت يد النسيان آثار ابن أبي طي الحلبي وأتى عليها الزمان (ابن أبي طي، ١٣٧٩ش: ١٧). يبدو أن الذهبي (م ٧٤٨ق) وابن حجر (م ٨٥٢ق) كانا قد رأيا كتاب "الطبقات" للحلبي بعينه فنقلا نماذج منه في آثارهما. أما بالنسبة إلى هذه العبارات والجمل المنقولة عنه فيمكن أن نقول إن في كثير من المواضع قد صرح الذهبي أو ابن حجر بأن هذه الجمل والعبارات منقولة عن كتاب ابن أبي طي. ولكن في مواضع قليلة نظن فقط أنها منقولة عنه دون أي تصريح. ويكون توجيه الظن إلى الذين

كانوا من أهالي القرنين الخامس والسادس للهجرة ولا يمكن أن تكون تراجمهم مستخرجة من كتاب الشيخ الطوسي أو كتاب النجاشي، وإن كان يمكن أن تكون منقولة عن كتاب "تاريخ بغداد" لابن النجار. في بعض الأحيان، ذكرت تراجم أشخاص كانوا من أهالي حلب؛ وأغلب الظن أن تراجمهم نقلت عن كتاب ابن أبي طي. من اللافت أن هذه الموارد تم تحديدها بوضع علامة نجم (*) إلى جانبها (المصدر نفسه: ٣٤ ـ ٣٥).

في القرن الثالث للهجرة، استمر الشيعة بتأليف الطبقات في المضامين الأدبية، فألف أبو هفان البصري (م ٢٥٧ق) كتاب "طبقات الشعراء" الذي ضاع ولم يصل إلينا شيء منه. علاوة على المضامين الأدبية والشعر، قام الشيعة بتأليف الطبقات في مجال الحديث وراوته كما قام بتأليفات عديدة في مجال العلوم المختلفة، منها كتاب "التاريخ في طبقات أهل العلم" لسليمان بن داوود الشاذكوني (م ٢٣٤ق)، والذي كان من أهالي مدينة أصفهان. في هذا القرن، اهتم الشيعة اهتماما بالغا بدراسة أعاظم رجال الشيعة وقام بتأليفات قيمة في هذا المجال، منها "طبقات الرجال" للبرقي (م ٢٧٤ق) وكتاب "طبقات الشيعة" لسعد بن عبد الله الأشعري (م ٢٩٩ق).

أما في القرن الرابع للهجرة، فلم يكتف الشيعة بكتابة طبقات رواة الحديث والشعراء والرجال الكبار، بل تعداها إلى شرح طبقات العرب والموالي والأشراف. في هذا المجال، يمكن أن نشير إلى كتاب "طبقات العرب والشهداء" لأبي محمد عبد العزيز بن يحيى الجلودي (م ٣٣٠ق) في البصرة، وكتاب "الطبقات"لابن دوُل القمي (م ٣٥٠ق) وكتاب "الشيعة من أصحاب الحديث وطبقاتهم وكتاب الموالي والأشراف وطبقاتهم" للقاضي الجعابي (م ٣٥٥ق) في بغداد. وللأسف ضاعت هذه الكتب كلها ولم يصل إلينا شيء منها.

في القرن الخامس وتزامنا مع اهتمام فقهاء أهل السنة بكتابة الطبقات، صب الشيعة اهتمامه على كتابة طبقات الصحابة والرواة. في هذا القرن، ظهر كتاب "الرجال" لمحمد بن الحسن بن علي بن الحسن (٣٨٥ق ـ ٤٦٠ق) المشهور بالشيخ الطوسي أو شيخ الطائفة. لقد قام هذا الكتاب بتصنيف ٥٩١٩ راويا من رواة الرسول ﷺ وأئمة الشيعة عليهم السلام حتى الإمام حسن العسكري عليه السلام.

في القرن السادس للهجرة، ألف أبو علي محمد بن أسعد الجواني الحسيني (م ٥٨٨ق)

أول كتاب في معرفة النسب تحت عنوان "طبقات النسابين". في هذا القرن، خرج إلى حيز الوجود كتاب "نزهة الألباء في طبقات الأدباء" لابن الأنباري (م ٥٧٧ق) في الواسط. لقد تطرق هذا الكتاب إلى تصنيف علماء الشيعة في علم النحو. استمرت الرغبة في كتابة طبقات الشعراء والأدباء في هذا القرن، فألف عمارة بن علي بن زيدان اليمني (م ٥٦٩ق) كتابه المعنون بـ"طبقات الشعراء" في اليمن.

مما يجدر ذكره هنا أن الشيعة في الوهلة الأولى اهتم بشرح السيرة النبوية وراوتها ثم اهتم في الدرجة الثانية بشرح أحوال الأئمة الاثنى عشر وما مر بهم. ولكن من القرن الخامس فصاعدا، اشتغل الشيعة عن الكتابة التاريخية إلى البحث عن النصوص الروائية شيئا فشيئا (توحيدي نيا وصفري فروشاني، ١٣٩٤ش: ٤٧ - ٤٢).

أما في القرن السابع للهجرة، فلم يؤلف كتاب في طبقات الشيعة إلا كتاب "طبقات الإمامية" أو "الحاوي في رجال الشيعة الإمامية" لابن أبي طي، والذي تناول كبار مذهب التشيع. في العصور التالية حتى بداية القرن الحادي عشر للهجرة، لم يؤلف كتاب في مجال طبقات الشيعة.

المكونات البنائية:

لدراسة المكونات البنائية لكتب طبقات الشيعة في العصر العباسي، يطلب الأمر منا أن نسلط الضوء فقط على كتب تكون موجودة اليوم أو جاءت بعض نصوصه متناثرة في بطون الكتب الأخرى.

١ـ الترتيب الزمني:

رغم بعض النظريات القائلة بأن كتب الطبقات نوع من التراجم يرتب فيه الرجال بحسب العلم الذي تخصصوا فيه وتفرغوا له، لا باعتبار آخر من اعتبارات الزمان وترتيب الأسماء (عبد الغني، ١٣٨٩ش: ٤٧)، إلا أن عنصر الزمن يلعب دورا بارزا في الآثار الموجودة بشكل صريح أو ضمني. إن نجعل ملاك التقسيم في ترتيب الطبقات هو التسلسل الزمني أو الترتيب التاريخي، فيتناغم استعمال كلمة "الطبقة" في الأشخاص بأصنافهم المختلفة مثل الراوة والحكام والعلماء والفنانين، تناغما كبيرا إلى حد بعيد مع المعنى اللغوي للطبقة، وهو الغطاء؛ ومرجع ذلك أن الجيل المتقدم يتفوق على الجيل المتأخر زمنيا، بعبارة

أخرى، يمكن أن نقول إن الجيل المتقدم يغطي الجيل المتأخر. يبدو أن كتابة الطبقات قد كانت أقدم منهج التقسيم الزمني الذي وظفه المؤرخون المسلمون. من الأرجح أن نقول إن توظيف الترتيب الزمني في الطبقات جاء كحصيلة منطقية لتقسيم رواة الحديث إلى الصحابة والتابعين، مما ظهر في أوائل القرن الثاني للهجرة ثم تطور في القرون التالية (روزنتال، ١٣٦٥ش: ١١١). إن المستشرق الإنجليزي الشهير، ديفيد مرجليوث (١٨٥٨ - ١٩٤٠م)، يرجح ترتيب الطبقات على الأساس الزمني (الحموي، د.ت: ٣٦)، فيعد عنصر الزمن من العناصر المهمة في تصنيف الطبقات وترتيبها. ومما يسترعي الانتباه هنا أن الشيعة قد اهتم اهتماما بالغا بالترتيب الزمني في كتابة الطبقات وتصنيف الأشخاص. فعلى سبيل المثال، يتضمن كتاب "نزهة الألباء في طبقات الأدباء" لأبي طالب الأنباري (م ٥٧٧ق) سير وتراجم ١٧٩ لغويا ونحويا (ابن الأنباري، ١٤٠٥ق، ٣٠٣ - ٣١٠). لقد جاء بعض كتب الطبقات والتراجم مرتبة على التسلسل الزمني والترتيب التاريخي دون وجود أي تصنيف. فمثلا يلاحظ هذا التسلسل الزمني وعدم وجود التصنيف في كتاب "نزهة الألباء" لابن الأنباري (صفري فروشاني، ١٣٧٩ش: ٤٠).

٢ـ الترتيب المعجمي:

من الميزات المهمة لطبقات الشيعة أنه جاءت أسماء رواة كل إمام في فصل مستقل وأحيانا مرتبة على حروف المعجم كما جاءت أسماء رواة لم يرووا عن أي إمام من أئمة الشيعة في فصل مستقل آخر. إن تصنيف الرواة على ترتيب أصحاب النبي ﷺ وأئمة الشيعة عليهم السلام وإن اعتمد على الترتيب الزمني إلا أنه يفارق منهج أهل السنة. فعلى سبيل المثال، تم تطبيق هذا المنهج في رجال البرقي ورجال الشيخ الطوسي (سمين، ١٤٣٣ق، ج ١: ١٠٤). فبناء على ذلك، يتم تصنيف الطبقات المختلفة قبل كل شيء، ثم يجعل شخص واحد على رأس كل طبقة ثم يذكر أسماء تلاميذه. من الواضح أن الشيعة لجأ إلى توظيف هذا المنهج فقط دون سائر الفرق. فنراهم من خلال هذا المنهج يجعلون الأئمة شخصيات محورية بارزة لكل طبقة دون إيجاد خلافات داخل الفرقة. فمثلا نرى أن صاحب كتاب رجال البرقي قد خصص آخر طبقة كتابه لرواة الإمام الحسن العسكري عليه السلام، هذا بينما أن شيخ الطائفة في كتابه رجال الطوسي بعد أن يذكر أصحاب الإمام الحسن العسكري عليه السلام، يفتح بابا جديدا تحت عنوان "من لم يرو عن واحد من الأئمة عليهم السلام" ثم يشير إلى أسماء رواة لم يرووا عن

أحد من الأئمة عليهم السلام بشكل مباشر، فمعظمهم كانوا يعيشون بعد الغيبة الصغرى، وذلك كله على وفق الترتيب الزمني.

إن بعض كتب طبقات الشيعة لا تحمل اسم الطبقات ولكن تزخر بالتراجم لفئات معينة مثل رجال البرقي ورجال الطوسي. فالكتاب الأول يتضمن ١٧٣٠ شخصا من أصحاب المعصومين. فهو دوّن على ترتيب طبقات الرواة وتم فهرستهم على أساس طبقة يتعلقون بها، بعبارة أدق، تم فهرستهم على أساس عصرهم وإمام رووا عنه. لكن مع ذلك، يحمل هذا الكتاب اسم الرجال وليس الطبقات. في حين تم تأليفه على وفق كتب الطبقات. وفي الوقت نفسه، نلاحظ أن بعض كتب طبقات الشيعة تحمل اسم الطبقات ولكن لا تتبع تصنيفا خاصا أو ضابطا؛ فعلى سبيل المثال، نرى أن كتاب ابن الأنباري وإن حمل اسم الطبقات إلا أنه لا يتبع ترتيبا أعجميا أو نسقا معينا في إيراد أسماء الأعلام المترجم لهم.

٣ـ معرفة الأنساب:

منذ قديم الزمن، كان يهتم العرب اهتماما بالغا بتمايز الأقوام والأشخاص فكان يبحث عن مرتبة الأشخاص ومكانتهم في أصلهم ونسبهم. إذا أردنا أن نشير إشارة مقتضبة إلى وجوه التباين بين التراجم وعلم الأنساب، يمكن أن نقول إن التراجم كانت تتبع أغراضا خلقية او علمية، فمثلا كان يتم تدوين تراجم الشهداء والعلماء لتقديم نموذج عالٍ من الإنسانية للآخرين (ستوده، ١٣٧٥ش: ٢٠٥). ولكن ظهر علم الأنساب لإظهار التمايز والتفاخر والتفوق في ميدان الحياة الاجتماعية أو السياسية. لقد زاد اهتمام العرب بالنسب في العصر الراشدي بسبب حاجتهم الماسةإلى تنظيم شؤون الدولة وتوزيع غنائم الحرب وفرض الأعطيات أو الرواتب للجند، فقام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بتدوين أنساب العرب في الديوان لهذه الغاية (البلاذري، ١٣٣٧ق: ٦٣٠؛ ابن سعد، ١٤١٠ق، ج ٣: ٢٠٢). إذا أردنا أن نقارن بين علم الأنساب وعلم الرجال، فمن المستحسن أن نقول إن المراد بعلم الرجال هو البحث عن صحة أو سقم رواة الحديث، في حين أن علم الأنساب على علاقة وطيدة مع فن كتابة التراجم والسير (الحلوجي، ١٩٩١م: ٥٥ ـ ٦٠). يمكن أن نعد علم الأنساب قسما من أقسام علم التراجم (ستوده، ١٣٧٥ش: ٢٠٣)، لأن الترجمة تطلق على تاريخ حياة شخص أو تاريخ قسم من حياته (المصدر نفسه). بذلك، أول معلومات نحصل

عليها من شخص في كتب التراجم، تتعلق باسم أبيه وأمه وأجداده. لأنه لا يمكن معرفة هوية شخص ما دون الحصول على هذه المعلومات. فكتاب "طبقات العرب والشعراء" لعبد العزيز بن يحيى الجلودي وكتاب "الموالي والأشراف وطبقاتهم" للقاضي الجعابي والكتب الأخرى للكتاب الشيعة الآخرين اهتمت اهتماما كثيرا بالنسب وتصنيف الطبقات الاجتماعية المختلفة. أما في القرن السادس للهجرة، فقام أبو علي محمد بن أسعد الجواني الحسيني في كتاب "طبقات النسابين" بتقديم أول تصنيف لنساب الشيعة.

٤ـ الإيجاز في الكلام:

هناك سمة بارزة تتفق فيها كتب الطبقات تقريبا، وهي أنها تميل إلى الاختصار والإيجاز. نلاحظ أن كما هائلا من الطبقات تقتصر على الاسم والنسب وأسماء المشائخ أي الذين روى الشخص عنهم، وتاريخ الوفاة وأحيانا تاريخ الميلاد وكذلك إيراد عبارات حول كون الشخص ثقة. فعلى سبيل المثال، حين نلقي نظرة عابرة على كتاب ابن الأنباري نرى أنه لم يحدد في بعض الأحايين اسم محل حياة الشخص وتاريخ الميلاد والوفاة. فالشيء الوحيد الذي استقطب اهتمامه هو مكانة الشخص في علم النحو ومشائخه. فمثلا في باب شخصية أبي عثمان سعدان بن مبارك الضرير، لم يذكر تاريخ ميلاده ووفاته بل اكتفى كل كفاية بمشائخه وآثاره (ابن الأنباري، ١٤٠٥ق: ١١٩). وها هو البرقي يتبع طريقة المفهرِسين فيقدم معلومات موجزة عن كل شخص، تشمل اسمه واسم أبيه واسم قبيلته (صفري فروشاني، ١٣٨١ش: ٧٥)، ومن فوائد رعاية الاختصار والإيجاز في الكلام هو إتاحة الفرصة للباحث التاريخي أن يحصل بسهولة ويسر على معلومات قيمة عن طبقة الرواي ويحدد روايات قد غاب أسماء بعض رواتها (البرقي، ١٤٣٣ق: ٨).

الخاتمة:ـ

تبين لنا من خلال هذا العرض الموجز، أنه بعد تأليف كتاب "تسمية من شهد مع أمير المؤمنين الجمل والصفين والنهروان من الأصحاب"، تطور كتابة طبقات الشيعة شيئا فشيئا فأخذ شكل مستقلا من كتب السيرة. استنادا إلى كتب طبقات الشعراء لدعبل الخزاعي، يمكن أن نقول إن بداية كتابة طبقات الشيعة تعود إلى القرن الثالث للهجرة وكانت في مجال العلوم الأدبية والشعر. من الناحية المضمونية، يلحظ وجوه تشابه كثيرة بين كتب طبقات

الشيعة وطبقات أهل السنة في شرح السيرة النبوية وتصنيف الصحابة والتابعين، وإن كانت هناك وجوه تباين بينهما في التعريف بطبقة الصحابة ومعايير تصنيف الصحابة والتابعين. بعد أن نمت العلوم والمناهج الفكرية الحديثة بشكل كبير في القرون الإسلامية الأولى وظهر جم غفير من العلماء في الساحات العلمية المختلفة، اهتم جماعة من هؤلاء العلماء بتدوين تراجم كبارهم. ومن اللافت أن كثيرا من المضامين التي تتضمنها كتب طبقات الشيعة، تتعلق بالعلوم الدينية مثل القراءة والرجال والحديث و... وغير الدينية مثل النحو والنسب والأدب والشعر و... وكذلك بيان مختلف زوايا ومقتضياتها. هذا من جهة ومن جهة أخرى، إن كتب الطبقات اهتمت اهتماما بالغا بالإتيان بمعلومات قيمة حول الأقوام والأمكنة وسماتها الفريدة. من أفضل الكتب التي حققت هذه الغاية المنشودة ما ألف ابن أبي طي تحت عنوان "طبقات الشيعة"، فهو تناول حياة كبار الشيعة في مدينة حلب وناقش الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية للشيعة في هذه المدينة العريقة.

وأخيرا، في طريقة تنظيم كتب الطبقات لدى الشيعة، يجب أن نشير إلى نقاط مهمة، أبرزها ما يلي: توظيف اللحن الروائي دون أي تعقيد وغموض، والاستقاء من الترتيب الزمني والترتيب الهجائي أو المعجمي في تصنيف الرواة والرجال، واللجوء إلى الإيجاز والاختصار في الكلام والابتعاد عن التطويل والإسهاب، والفهرسة، وتسجيل معلومات الكتب الضائعة، وذكر الرواة الثقة وسرد الأنساب وما شاكل ذلك.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن أبي طي، يحيى بن حميد، الحاوي في رجال الشيعة الإمامية، تحقيق رسول جعفريان، د.م، د.ن، ١٣٧٩ش.
- ابن الأنباري، أبوالبركات عبدالرحمن بن محمد، نزهةالألباء في طبقات الأدباء، تحقيق إبراهيم السامرائي، الزرقاء، مكتبةالمنار، ١٤٠٥ق.
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد، الطبقات الكبري، بيروت،دار الكتب العلميه، ١٤١٠ق.
- البرقي، أحمد بن عبد الله، رجال البرقي، إشراف جعفر سبحاني، تحقيق وتعليق: حيدر محمد علي البغدادي، قم، مؤسسةالإمام الصادق،١٤٣٣ق.

- البلاذري، أحمد بن يحيي، فتوح البلدان، ترجمة محمد توكل، تهران، نقره، ١٣٣٧ش.
- حسن،محمد عبد الغني،التراجم،القاهرة،دار المعارف،١٩٥٥م.
- الحلوجي،عبدا لستار،مدخل لدراسة المراجع، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٩١م.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم الأدباء، تصحيح د. س. مرجليوث، مشهد، سازمان كتابخانه-ها، موزهها ومركزاسنادآستان قدس رضوي، د.ت.
- روزنتال، فرانتس، تاريخ تاريخ نگاري دراسلام، ترجمه اسدالله آزاد، مشهد، آستان قدس رضوي، ١٣٦٥ش.
- ستوده،غلامرضا، مرجع شناسي وروش تحقيق درادبيات فارسي، تهران،سمت، ١٣٧٥ش.
- سمين، أحمد، دروس تمهيدية في تاريخ علم الرجال عند الإمامية، دارالفقه الإسلامي المعاصر، ١٤٣٣ق.
- صفري فروشاني، نعمت‌الله،((پيشينه طبقات نگاري درميان مسلمانان))،كتاب ماهدين، ش.٥٥،اردىبهشت١٣٨١ش.
- الطوسي،محمد بن الحسن، رجال الطوسي، تحقيق جواد القيومي الأصفهاني، قم، مؤسسة النشرالإسلامي، ١٤١٥ق / تحقيق: سيد محمد صادق بحرالعلوم، نجف: المطبعة الحيدرية، ١٣٨٥ق.
- العاملي، الحسن بن زين الدين، التحريرالطاوسي، قم، جواهري، ١٤١١ق.